

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

مَكِّيَّةٌ، [إِلَّا آيَتَيْ ٢٨ وَ ٢٩ فَمَدَنِيَّتَانِ]

وآيَاتُهَا ٥٢ [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ نُوحٍ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

﴿كِتَابٌ﴾: هو كتاب، يعني: السورة، وقرئ: «ليخرج الناس»، والظلمات والنور: استعارتان للضلال والهدى، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل للحجاب؛ وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق، ﴿إِنْ صِرَاطَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾: بدل من قوله: «إلى النور» بتكرير العامل؛ كقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَفْهَمُوا لَعَنَّا أَمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، ويجوز أن يكون على وجه الاستثناء؛ كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد، وقوله: ﴿اللَّهُ﴾: عطف بيان للعزيز الحميد؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام؛ لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحقق له العبادة، كما غلب النجم في الثريا^(١)، وقرئ بالرفع على: هو الله، الويل: نقيض الوأل، وهو النجاة اسم معنى، كالهلاك؛ إلا أنه لا يشتق منه فعل؛ إنما يقال: ويلاً له، فينصب نصب المصادر، ثم يرفع رفعها؛ لإفادة معنى الثبات، فيقال: ويل له؛ كقوله: «سلام عليك»، ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل.

فإن قلت: ما وجه اتصال قوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بالويل؟

قلت: لأن المعنى أنهم يولولون من عذاب شديد، ويضحجون منه، ويقولون: يا

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا التعليل لا يتم إلا أن يكون أصله الإله، ثم فعل فيه ما تقدم أول هذا الموضوع». انتهى. الدر المصون.

ويلاه؛ كقوله: ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، ﴿الَّذِينَ يَسْتَجِبُونَ﴾: مبتدأ خيره: أولئك في ضلال بعيد، ويجوز أن يكون مجروراً صفة للكافرين، ومنصوباً على الذم، أو مرفوعاً على أعني الذين يستحبون أو هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة؛ لأن المؤثر للشيء على غيره، كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر، وقرأ الحسن: «ويصدون»: بضم الياء، وكسر الصاد، يقال: صدّه عن كذا، وأصدّه؛ قال [من الطويل]:

أَنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمْ (١)

والهمزة فيه داخلة على صد صدوداً، لتقلبه من غير التعدي إلى التعدي، وأما صدّه، فموضوع على التعدي كمنعه، وليست بفصيحة كأوقفه؛ لأن الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدي بالهمزة، ﴿وَيَبْقُوتَهَا عِوَجًا﴾: ويطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً، وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية، / ١٨١ والأصل: ويبغون لها، فحذف الجار وأوصل الفعل، ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ضلوا عن طريق الحق، ووقفوا دونه بمراحل.

فإن قلت: فما معنى وصف الضلال بالبعيد؟

قلت: هو من الإسناد المجازي، والبعيد في الحقيقة للضلال؛ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه، ويجوز أن يراد: في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد؛ لأن الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(١) أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم صدود السوافي في أنوف الحواميم

لذي الرمة، أنشده عنه الفراء، يقال: صدّه عن كذا، ولغة كلب: أصدّه عنه إذا منعه، فوضع الصدود موضع الإصداد. والسوافي - بالفاء -: الرياح، لأنها تسفو التراب. وقيل: هي بالقاف جمع ساق أو ساقية، وهي فوق الجدول. والحواميم: الجمال العطاش؛ لأنها تحوم حول الماء جمع حاييم، ويطلق على طير إذا اشتد عطشه حام حول الماء، فإذا ناله سقط ريشه فيغرق فيه. وجمعه حواميم أيضاً. ويجوز أن يراد هنا، أو الجبال لأنها لارتفاعها تشرف من بعد كأنها حايمة، أو لأن الطير يحوم فوقها فنسب الفعل إليها مجاز لأنها محلّه، يقول: قوم منعوا الناس عن أنفسهم بالسيف لمنع الرياح وضربها في أنوف الجمال، أو في أعالي الجبال، أو كمنع السقاة إبل غيرهم عن إبلهم في السقي، أو كمنع الأنهار لبعدها الإبل العطاش أو الطيور العطاش عن الشرب، لأن الطيور تخاف الغرق فيه. ويروي: عن أنوف الحواميم. وفيه تشبيه الأعداء بالعطاش وأصحاب السيوف، أو السيوف بالرياح ضمناً.

ينظر: الدر المصون (٤/٢٥١).

﴿إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُفْقَهُوا عَنَّا مَا يَدْعُوهُمُ إِلَيْهِ﴾ أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله^(١)، ولا يقولوا: لم نفهم ما خوطبنا به؛ كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فِصْلَتُ آيَاتِهِ لَإِنَّا لَنَجْمٌ مِّنَ الْأَعْيُنِ﴾ [فصلت: ٤٤].

فإن قلت: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم؛ وإنما بعث إلى الناس جميعاً، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، بل إلى الثقلين، وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية، لم تكن للعرب حجة، أيضاً؟

قلت: لا يخلو، إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة^(٢)، والأمم المتخلفة، والأجيال المتفاوتة، على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتياب النفوس وكذ القرائح فيه، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها - مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها يتلوه عليهم معجزاً - لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء، ومعنى: (بلسان قومه): بلغة قومه، وقرئ: «بلسن قومه»، واللسن واللسان: كالريش والرياش، بمعنى: اللغة، وقرئ: «بلسن قومه»: بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة، وهو جمع لسان، كعماد وعمد وعمد على التخفيف، وقيل: الضمير في قومه

- (١) قال محمود: «أي ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة... الخ» قال أحمد: جميع الفصل مرضي، لكن في هذه الخاتمة نظراً، لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة يتفاصر عن إعجازه، لو قدر منزل بكل لسان، حتى إنه لو ينزل بجميع اللغات لبلغ من الوضوح إلى حد يكاد أن يكون إلهاء إلى الإيمان به، وهذا فيه نظراً، والقول به غير متعين؛ لأن المعجز يفيد العلم بصدق من ظهر على يده، ومتى حصل العلم لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح، فلو نزل القرآن بجميع اللغات، لكان العلم الحاصل منه وقد نزل بلغة واحدة، هو العلم الحاصل منه لو نزل بالجميع، لا تفاوت ولا ترجيح بين العلمين، هذا هو التحقيق، والله أعلم. والزمخشري يبني في كثير من كلامه على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلي وأجلى، وهو من الحق بمعزل، وإنما ظن ذلك طائفة ظاهرية، والله الموفق.
- (٢) قوله: «والأقطار المتنازحة» أي المتباعدة جداً. أفاده الصحاح (ع).

لمحمد ﷺ ورووه عن الضحاك، وأن الكتب كلها نزلت بالعربية، ثم أذاها كل نبي بلغة قومه، وليس بصحيح؛ لأن قوله ليبين لهم ضمير القوم وهم العرب، فيؤذي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب، وهذا معنى فاسد، ﴿فِيضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ كقوله: ﴿فَإِنَّكَ كَافِرٌ مِّنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢٢]؛ لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن، والمراد بالإضلال: التخليّة ومنع الألفاظ^(١)، وبالهداية: التوفيق واللفظ، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان، ﴿وَهُوَ أَلْفَرِيزٌ﴾: فلا يغلب على مشيئته، ﴿الْفَكْرِيمُ﴾: فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلطف إلا بأهل اللطف.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ بمعنى: أي أخرج؛ لأن الإرسال فيه معنى القول، كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: أخرج، ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل؛ وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر؛ لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية، والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل: قولهم أوعز إليه بأن افعل، فأدخلوا عليها حرف الجر؛ وكذلك التقدير بأن أخرج قومك، ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم: قوم نوح، وعاد، وثمود، ومنه أيام العرب؛ لحروبها وملاحمها، كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها، وهو الظاهر، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: نعماءه وبلاؤه، فأما نعماءه: فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وقلق لهم البحر، وأما بلاؤه: فإهلاك القرون، ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: يصبر على بلاء الله ويشكر نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم، أو أفاض عليهم من النعم، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر، وقيل: أراد لكل مؤمن؛ لأن الشكر والصبر من سجايهم؛ تنبيهاً عليهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أُنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّوكم بِأَسْنَانِكُمْ وَيُسَيِّئُونَ بِسَاءَتِهِمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

(١) قوله: «والمراد بالإضلال التخليّة ومنع الألفاظ» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فخلق الضلال في القلب، لأن الله لا يخلق الشر عند المعتزلة، ويخلقه كالخير عند أهل السنة (ع).

﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ﴾: ظرف للنعمة بمعنى الإنعام، أي: إنعامه عليكم ذلك الوقت.

فإن قلت: هل يجوز أن يتصب بعليكم؟

قلت: لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى الإنعام، أو غير صلة إذا أردت بالنعمة العطفية، فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة، بمعنى: اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم عمل فيه، ويتبين^(١) الفرق بين الوجهين أنك إذا قلت: نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة، لم يكن كلاماً حتى تقول فائضة أو نحوها، وإلا كان كلاماً، ويجوز أن يكون «إذ»: بدلاً من نعمة الله، أي: اذكروا وقت إنجائكم، وهو من بدل الاشتمال.

فإن قلت: في سورة البقرة: (يذبحون)، وفي الأعراف: (يقتلون)، وههنا:

﴿وَيَذَّبُونَ﴾ مع الواو، فما الفرق؟

قلت: الفرق: أن الذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبيانا له، وحيث أثبت جعل التذبيح؛ لأنه أوفى على جنس العذاب، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر.

فإن قلت: كيف كان فعل/ ١٨١ أب آل فرعون بلاء من ربهم؟

قلت: تمكينهم وإمهالهم، حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاء من الله، ووجه آخر وهو: أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً، قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]؛ وقال زهير [من الطويل]:

..... فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَنْبَلُو^(٢)

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبِكُمْ لَيْنَ شُكْرَتِهِ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبِكُمْ﴾: من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: ﴿نِعْمَةً اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠]، كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم، ومعنى تأذن ربكم: أذن ربكم، ونظير تأذن وأذن: توعد وأوعد، تفضل وأفضل، ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه، والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿لَيْنَ شُكْرَتِهِ﴾، أو أجرى (تأذن): مجرى؛ قال: لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ لئن شكرتم لأزيدنكم﴾، أي: لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح،

(١) قوله: «ويتبين» لعله: ويتبين (ع).

(٢) تقدم.

﴿لَا زِيَادَتَكُمْ﴾: نعمة إلى نعمة، ولأضعاف لكم ما آتيتكم، ﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾: وغمظتم^(١) ما أنعمت به عليكم، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾: لمن كفر نعمتي.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٨)

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾: إن كفرتم أنتم يا بني إسرائيل والناس كلهم؛ فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بد لكم منه وأنتم إليه محاييج، والله غني عن شكركم، ﴿حَمِيدٌ﴾: مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه، وإن لم يحمدوا الحامدون.

﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُم بِنُوحٍ مِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾^(٩)

﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: جملة من مبتدأ وخبر، وقعت اعتراضاً^(٢): أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: اعتراض، والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، يعني: أنهم يدعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل^(٣)؛ كقوله: ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾، أو ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى الاستهزاء وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: هذا جوابنا

(١) قوله: «وغمظتم ما أنعمت به عليكم» في الصحاح «غظ الشيء» بظره وحقره (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: ورد عليه الشيخ بأن الاعتراض إنما يكون بين جزئين، أحدهما يطلب الآخر، ولذلك لما أعرب الزمخشري «والذين» مبتدأ، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ خبره، قال: «والجملة من المبتدأ والخبر اعتراض». واعتراضه الشيخ أيضاً بما تقدم، ويمكن أن يجاب عنه في الموضعين: بأن الزمخشري يمكن أن يعتقد أن «جاءتهم» حال مما تقدم، فيكون الاعتراض واقعاً بين الحال وصاحبها وهذا كلام صحيح. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود: «معناه عضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل... إلخ» قال أحمد: وأقوى هذه الوجوه هذا الوجه الذي نبه المصنف على اختصاصه بالقوة، وإنما كان كذلك لأن إقناطهم الرسل من الإيمان قولاً وفعلاً بوضع اليد في الفم، هو المناسب لحسدتهم في الكفر. وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك مبالغة في التأكيد وليس السياق بمناسب للضحك ولا الغيظ ولا لتصميم الرسل كمناسبتة لإقناطهم من القبول. ألا ترى أنهم لما أعادوا للرسل القول ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة، دل على أنهم لم يسكتوهم أولاً، ولا كان غرضهم ذلك، والله أعلم.

لكم ليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿فَرَدَّوْا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ وهذا قول قوي، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو ردوها في أفواه الأنبياء يسيرون لهم إلى السكون، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي، جمع: يد، وهي النعمة بمعنى: الأيدي، أي: ردوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم، وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم؛ لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكأنهم ردوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل، ﴿وَمَا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾: من الإيمان بالله، وقرئ: «تدعوننا»: بإدغام النون، ﴿مُرِيبٍ﴾: موقع في الريبة أو ذي ريبة، من أرابه، وأراب^(١) الرجل، وهي قلق النفس وألاً تطمئن إلى الأمر.

﴿قَالَتْ رَسُولُهُمُ أَيْ اللَّهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١١)

﴿أَيْ اللَّهُ شَكُّ﴾: أدخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأن الكلام ليس في الشك؛ إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم أو يدعوكم لأجل المغفرة؛ كقوله: دعوته لينصرتني، ودعوته ليأكل معي؛ وقال [من المتقارب]:
دَعْوَتُ - لِمَا نَابِنِي - مَسْوَرًا فَلَبَّيْ قَلْبِي يَدَنِي مَسْوَرًا^(٢)

(١) قوله: «وأراب الرجل» لعله: أو أراب (ع).

(٢) لأعرابي من بني أسد. ولبى: بمعنى أجاب، ورسه ابن حبيب بالالف وإن كان يائياً للفرق بينه وبين المشى بعده. ولبى من الأسماء اللازمة للإضافة إلى الضمير، وشذ إضافته للظاهر كما هنا، من لب بالمكان لباً أتمام به والمراد ملازمة إجابته بعد إجابة لا اثنين فقط، وهو منصوب على المصدرية بفعل محذوف. هذا مذهب سيبويه. وزعم يونس أنه مفرد مقصور، قلبت ألفه مع الضمير ياء كلدى وعلى، فرد عليه سيبويه بأنه لو كان كذلك لم تنقلب ألفه مع الظاهر ياء كلدى وعلى، لكنهم لما أضافوه للظاهر قلبوها ياء كما في البيت. يقول: دعوت مسوراً لما أصابني، فأجابني فلبى يديه، أي أجاب الله دعاه إجابة بعد إجابة، وأقمح اليدين لأنهما يرفعان عند الدعاء، فكأنهما المجابتان؛ أو لأن نصره حصل بهما، ففيه إشارة إلى أنه أنقذه. وقيل: إنه دعاه ليغرم عنه الدية، فأجابته، فذكر يديه لأنه بذل بهما. قيل: وكانت عادة العرب ذلك فهي عنه. روي عن رسول الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: إذا دعا أحدكم أخاه فقال: لبيك، فلا يقولن لبي يديك، وليقل أجبك الله بما تحب.

ينظر: الدرر ٦٨/٣، شرح التصريح ٣٨/٢، شرح شواهد المغني ٩١٠/٢، لسان العرب (لبى)، =

فإن قلت: ما معنى التبعض في قوله: من ذنوبكم؟

قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين؛ كقوله: ﴿وَأَتَقُوا وَأَطِيعُوا وَيَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣، ٤٤]، ﴿يَقُومَنَا آيِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ. يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَذُكَّرُ عَلَىٰ يَمْرُورٍ تُحِبُّكُمْ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢]، وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للترفة بين الخطابين، ولثلا يسوي بين الفريقين في الميعاد، وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره، يبلغكموه إن آمنتم، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت، ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾: ما أنتم، ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصون بالنبوة^(١) دوننا، ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً، لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة^(٢)، ﴿يَسْأَلُنِي مُّؤْمِنِينَ﴾: بحجة بينة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج؛ وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجاً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: تسليم لقولهم، وأنهم بشر مثلهم، يعنون: أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم؛ ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعاً

= المقاصد النحوية ٣/٣٨١، وأوضح المسالك ٣/١٢٣، خزانة الأدب ٢/٩٢، ٩٣، سر صناعة الإعراب ٢/٧٤٧، شرح أبيات سيويه ١/٣٧٩، شرح الأشموني ٢/٣١٢، شرح ابن عقيل ص (٣٨٣، ٣٨٥)، الكتاب ١/٣٥٢، المحتسب ١/٧٨، ٢/٢٣، مغني اللبيب ٢/٥٧٨، جمع الهوامع ١/١٩٠، الدر المصون ٣/٦٣.

(١) عاد كلامه. قال: «وقولهم إن أنتم إلا بشر مثلنا: معناه فلم تخصون بالنبوة دوننا؟ ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة؟ قال أحمد: ومن تهالكه على الانتصار لاعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون كاعتقاد القدرية في تفضيل الملك على الرسول، لأنه يدعي ذلك أمراً مركزاً في الطباع معلوماً ضرورة، والله الموفق.

(٢) قوله: «لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة» هذا على مذهب المعتزلة، أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل (ع).

منهم، واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: بالنبوة؛ لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحوها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق/ ١٨٢ أ بمشيئة الله، ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً وأمرها به، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله﴾ ومعناه: وأبي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه، ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا﴾: وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين.

فإن قلت: كيف كثر الأمر بالتوكل^(١)؟

قلت: الأول لاستحداث التوكل، وقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ

وَعِيدِ ﴿١٤﴾

﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ﴾، ﴿أَوْ لَنَعُودَنَّ﴾: ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم، وإما عودكم حالقين^(٢) على ذلك.

فإن قلت: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها.

قلت: معاذ الله، ولكن العود بمعنى: الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار، ولكن عاد، ما عدت أراه عادلاً يكلمني، ما عاد لفلان مال، أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد، ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾: حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول؛ لأنه ضرب منه، وقرأ أبو حية: «ليهلكن»، «وليسكننكم»: بالياء اعتباراً لأوحى، وأن لفظه لفظ الغيبة؛ ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن، والمراد بالأرض، أرض الظالمين وديارهم؛ ونحوه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِكِ الْأَرْضِ

(١) قال محمود: «إن قلت كيف كرر ذلك بعد قوله ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾... إلخ» قال

أحمد: وبهذا يخرج عن وادي «من قتل قتيلاً فله سلبه» والله أعلم.

(٢) قوله: «حالقين» حال من فاعل قال: وعبرة النسفي «وحلفوا» (ع).

وَمَعَدِبَهَا ﴿الأعراف: ١٣٧﴾، ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَوَدَيْرَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وعن النبي ﷺ: «مَنْ آذَى جَارَهُ وَرُفَّهُ اللَّهُ ذَارَهُ» (٨٠٩)، ولقد عاينت هذا في مدة قريبة: كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنها منها ويؤذيني فيه، فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته، فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في دورها، ويخرجون، ويأمرون وينهون، فذكرت قول رسول الله ﷺ وحدثهم به، وسجدنا شكراً لله، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين، وإسكان المؤمنين ديارهم، أي: ذلك الأمر حق، ﴿لَمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾: موقفي وهو موقف الحساب؛ لأنه موقف الله الذي يقف^(١) فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام، وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله، والمعنى: أن ذلك حق للمتقين؛ كقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الفصص: ٨٣].

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَسُقِيَ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَنْجَرَعُهُ وَلَا يُعَاذُ بِسَيْفِهِ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾: واستنصروا الله على أعدائهم، ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]: أو استحكموا الله، وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهو معطوف على: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ وقرئ: «واستفتحوا»: بلفظ الأمر، وعطفه على: (لنهلكن)، أي: أوحى إليهم ربهم، وقال لهم: لنهلكن، وقال لهم: استفتحوا، ﴿وَوَخَّابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معناه: فنصروا وظفروا وأفلحوا، وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم، وقيل: واستفتح الكفار على الرسل، ظناً منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه، ﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾: من بين يديه، قال [من الوافر]:
عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أُمْسِيَتْ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبٌ^(٢)

٨٠٩ - بيض له الزيلعي في «تخريج الكشاف» (١٩٩/٢)، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

(١) قوله: «يقف فيه عباده» في الصحاح: يتعدى ولا يتعدى (ع).

(٢) يورقني اكتتاب أبي نمير فقلبي من كآبته كنيب

فقلت له: هداك الله مهلاً وخير القول ذو اللب المصيب

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

لهدبة بن خشرم العذري. ويروى: خرشم، وكان مسجوناً للقتل. والتأريق: التسهير، والاكنتاب: الانكسار وتغير اللون من الحزن، والكتابة كذلك. وأبو نمير كان صديقاً له، فزاره ذلك السجن =

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا؛ لأنه مرصد لجهنم، فكانها بين يديه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف.

فإن قلت: علام عطف: ﴿وَسُقَى﴾؟

قلت: على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقي فيها ما يلقي ويسقى من ماء صديد، كأنه أشد عذابها، فخصص بالذكر مع قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِحَيِّتٍ﴾.

فإن قلت: ما وجه قوله تعالى: ﴿مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾؟

قلت: صديد عطف بيان لماء، قال: (ويسقى من ماء)، فأبهمه إبهاماً، ثم بينه بقوله: (صديد)، وهو ما يسيل من جلود أهل النار، ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾: يتكلف جرعه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيْمُهُ﴾: دخل كاد للمبالغة، يعني: ولا يقارب أن يسيغه، فكيف تكون الإساعة؛ كقوله: ﴿لَوْ يَكْدُرْنَهَا﴾ [النور: ٤٠]، أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها؟ ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾: كأن أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه^(١) وأحاطت به من جميع الجهات، تفضيلاً لما يصيبه من الآلام، وقيل: (من كل مكان): من جسده حتى من إبهام رجله، وقيل: من أصل كل شعرة، ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾: ومن بين يديه، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله وأغلظ، وعن الفضيل: هو قطع

== وحزن عليه. ومهلاً: مصدر يدل من اللفظ بفعله. وخبر القول: جملة اعتراضية في أثناء مقول القول. واللب: العقل. وعسى الكرب: تمة مقول القول. ويروى: أمسيت، بالضم والفتح. وقال الجوهري «وراء» يأتي بمعنى خلف، وقد يأتي بمعنى قدام، فهو من الأضداد اه؛ لأنه ما وراء الشخص بجرمه عن نفسه أو عن غيره، ومواراته عن نفسه لا يمكن إلا في الخلف، فكثرت فيه. أو هو مكان المواراة مطلقاً، وهو في الخلف أكثر. واسم «يكون» ضمير الكرب، ووراءه متعلق بمحذوف خبر ليكون، و«فرج» فاعل بالظرف. ويجوز أن «فرج» مبتدأ و«وراءه» متعلق بمحذوف خبر له، والجملة خبر ليكون، ويجب كون المحذوف كوناً تاماً لا ناقصاً؛ لئلا يحتاج إلى تقدير محذوف أيضاً، فيتسلسل التقدير، ولم يجعل «فرج» مرفوع بكون؛ لأن خبر أفعال المقاربة لا يرفع الأجنبي عن أسمائها. وجملة «يكون» خبر ليس، وتجريد خبرها من «أن» قليل أي عسى أن يحصل الفرج بعد الكرب.

ينظر خزانة الأدب ٣٢٨/٩، ٣٣٠، وشرح أبيات سيبويه ١٤٢/١، والدرر ١٤٥/٢، وشرح التصريح ٢٠٦/١، وشرح شواهد الإيضاح ص ٩٧، وشرح شواهد المغني ص ٤٤٣، والكتاب ٣/١٥٩، واللمع ص ٢٢٥، والمقاصد النحوية ١٨٤/٢، وأسرار العربية ص ١٢٨، وأوضح المسالك ٣١٢/١، وتخليص الشواهد ص ٣٢٦، وخزانة الأدب ٣١٦/٩، والجنى الداني ص ٤٦٢، وشرح ابن عقيل ص ١٦٥، وشرح عمدة الحفاظ ص ٨١٦، والمقرب ٩٨/١، وشرح المفصل ١١٧/٧، ١٢١، ومغني اللبيب ص ١٥٢، والمقتضب ٧٠/٣، وهمع الهوامع ١٣٠/١ والدر المصون ١/٥٢٦.

(١) قوله: «قد تألبت عليه» أي تجمعت. أفاده الصحاح (ع).

الأنفاس وحبسها في الأجساد، ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي: استمطروا - والفتح المطر - في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ فلم يسقوا؛ فذكر سبحانه ذلك، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد، وأنه يسقى في جهنم بدل سقيه ماء آخر، وهو صديد أهل النار، واستفتحوا - على هذا التفسير -: كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾

هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيويه، تقديره: وفيما يقص عليك، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾: والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾: جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل/ ١٨٢ب: أعمالهم كرماد، ويجوز أن يكون المعنى: مثل أعمال الذين كفروا بربهم، أو هذه الجملة خبراً للمبتدأ، أي: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد؛ كقولك: صفة زيد عرضه مصون وماله مبدول، أو يكون أعمالهم بدلاً من: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على تقدير: مثل أعمالهم، وكرماد: الخبر، وقرئ: «الرياح»، ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾: جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح أو الرياح؛ كقولك: يوم ماطر وليلة ساكرة؛ وإنما السكور لريحها^(١)، وقرئ: «في يوم عاصف» بالإضافة، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم، من صلة الأرحام وعتق الرقاب، وفداء الأساري، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجازة، وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في جبوطها وذهابها هباءً مثوراً لبناتها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به، وكونها لوجه: برماد طيرته الريح العاصف، ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾: يوم القيامة، ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾: من أعمالهم، ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾: إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾: إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب، ﴿وَالْحَقُّ﴾: بالحكمة والغرض الصحيح^(٢)، والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

- (١) قوله: «وإنما السكور لريحها» في الصحاح: سكوت الريح، تسكر سكوراً: سكنت بعد الهبوب (ع).
(٢) قال محمود: «معناه خلقها بالحكمة والغرض الصحيح... إلخ» قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي وقد تقدمت أمثاله.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

وقرى: «خالق السموات والأرض»، ﴿إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبِكُمْ﴾ أي: هو قادر على أن يعدم الناس، ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم؛ إعلماً منه باقتداره على إعدام الموجود، وإيجاد المعدوم، يقدر على الشيء وجنس ضده، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾: بمتعذر، بل هو هين عليه يسيراً^(١)؛ لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف، تكون من غير توقف: كتحريرك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف؛ وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله؛ لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يعبد، ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

﴿وَسَرُّوْا لِلَّهِ جَمِيْعًا فَقَالَ الضُّعَفَاؤُ لِلَّذِيْنَ اسْتَكْبَرُوْا اِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدِيْنَكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَسَرُّوْا لِلَّهِ﴾: ويبرزون يوم القيامة؛ وإنما جيء به بلفظ الماضي؛ لأن ما أخبر به عز وجل لصدقه كأنه قد كان ووجد؛ ونحوه: ﴿وَأَدَّيْ أَمَّكُ الْبَيْتِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَأَدَّيْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾: ونظائر له، ومعنى بروزهم لله - والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له - أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش، ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة، انكشفوا لله عند أنفسهم، وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

فإن قلت: لم كتب: ﴿الضُّعَفَاؤُ﴾: بواو قبل الهمزة؟

قلت: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو؛ ونظيره: ﴿أَوَّلُ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُنَا بِحَبْلِ إِبْرَاهِيْمَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، والضعفاء: الأتباع والعوام، والذي استكبروا: ساداتهم وكبرائهم، الذين استتبعوهم واستغورهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم، ﴿تَبَعًا﴾: تابعين: جمع تابع على تبع؛ كقولهم: خادم وخدم، وغائب

(١) عاد كلامه. قال: معناه وما ذلك على الله بعزيز، أي: هين عليه، لأنه قادر بالذات... الخ... قال أحمد: وهذا اعتزال صراح لم يتقنع في إبرازه، وما أبشع قوله عن الله جل جلاله، خلص له الداعي وأمضى الصارف، وما أنباه عن سمع المحققين العارفين بأداب الله تعالى وبما يجب في حق جلاله، وقد تقدم ما فيه كفاية.

وغيب^(١)، أو ذوي تبع، والتبع: الأتباع، يقال: تبعه تبعاً.

فإن قلت: أي فرق بين من في: ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾، وبينه في: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾؟

قلت: الأولى: للتبيين، والثانية: للتبويض، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبويض معاً، بمعنى: هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله، أي: بعض بعض عذاب الله؟

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْكُمْ﴾؟

قلت: الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم^(٢)، وعتاباً على استباعتهم واستغوانهم، وقولهم: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ عَنَّا﴾: من باب التبكيت؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرّون على الإغناء عنهم، فأجابوهم معتردين عما كان منهم إليهم: بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم، ولم يضلّوهم، إما موركين الذنب^(٣) في ضلالهم وإضلالهم على الله، كما حكي الله عنهم وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا؛ ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]، وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا، لهديناكم إلى الإيمان، وقيل: معناه: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغنيا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة، كما سلكنا بكم طريق الهلكة،

(١) قوله: «خادم وخدم وغائب» في الصحاح: وإنما ثبتت فيه الياء في التحريك، لأنه شبه بصيد وإن كان جمعاً، وصيد مصدر قولك «بعير أصيد» لأنه يجوز أن ينوي به المصدر (ع).

(٢) قال محمود: «الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم... إلخ» قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة المشتملة على أن الله تعالى مهما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن هداية المشركين مما لم يشأه، ولو شاءها لاهتدوا. وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق حين حقت لهم الحقائق وانكشف الغطاء. والمقصود من اقتصاصه: إنذار أمثالهم في الدنيا، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة إذا حق عليهم العذاب واعترفوا بالحق وقالوا القول المذكور، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى، فلما فطن الزمخشري لذلك شرع في تقرير تخطئتهم في هذا القول في الآخرة كما خطأهم في الدنيا، ليتم له اعتقاد أن الله يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء، ومن ذلك هداية الكفار فإن الله تعالى يشاؤها في الدنيا، لكنها لم تكن. وأنى له ذلك، وسياق الآية يصوب الكلام المذكور وينذر الغافلين عنه في الدنيا، ويحذرهم من التورط فيما يؤدي إلى هذا الندم، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة، إذ لا ينجع، كما أورد كلام الشيطان عقيب ذلك حين يعترف بالحق في دار الحق، وحيث لا ينفعه إيمانه، فيقول: إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم... إلخ. وإنما سبق تحذيراً وإنذاراً اتفاقاً، والله الموفق.

(٣) قوله: «موركين الذنب» في الصحاح: ورك فلان ذنبه على غيره، أي: قرفه به اهد، أي: اتهمه به (ع).

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾: مستويان علينا الجزع والصبر، والهمزة وأم للتسوية؛ وسحوه: ﴿فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦]. وروي أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك ثم يقولون: سواء علينا.

فإن قلت: كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله؟

قلت: اتصاله به من حيث أن عتابهم لهم كان جزعاً مما هم فيه، فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، يريدون: أنفسهم وإياهم، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطم، أو لما قالوا: لو هدانا الله طريق النجاة لأغنيننا عنكم وأنجيناكم، أتبعوه الإقناط من / ١٨٣ النجاة فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي: منجى ومهرب، جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً، كأنه قيل: قالوا: جميعاً: سواء علينا؛ كقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ [يوسف: ٥٢]، ولمحيص: يكون مصدرأ، كالمغيب والمشيب، ومكانأ، كالمبيت والمصيف، ويقال: حاص عنه وجاض، بمعنى واحد.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: لما قطع الأمر وفرغ منه، وهو الحساب، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار، وروي أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً^(١) في الأشقياء

(١) قال محمود: «روي أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً... إلخ» قال أحمد: قد حمل قول الكفار في الآية الأولى على إبطال الانتحال، لأنه لا يلائم معتقده، واستشهد على أن الكذب حينئذ غير ممتنع ولا متعذر بقوله تعالى ﴿يَقْتُلُونَ لَمَّا كُنَّا بِمَلْفُونًا نُكْرًا﴾ ثم لما ظن أن قول الشيطان هذا يلائم معتقده، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه وإن كان قائله الشيطان؛ كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه وأية سلك. ونحن معاشر أهل السنة الملقين، عنده بالمجيرة نقول: إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير راد له، ولا مخطيء فيه الشيطان، كما اقتص كلام الكفار في الآية الأولى كذلك. ونحن نعتقد أن الملامة إنما تتوجه على المكلف وأما الله تعالى فمقدس عن ذلك. وحجته البالغة، وقضاؤه الحق. وذلك أننا نعرف بما خلقه الله تعالى للعبد من الاختيار الذي يجده من نفسه عند تجاذب طرفي الأفعال الإرادية ضرورة؛ وبذلك قامت الحجة له على خلقه، وإن سلينا =

من الجن والإنس فيقول ذلك، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ﴾: وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم، ﴿وَوَعَدْتُّكُمْ﴾: خلاف ذلك، ﴿فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾: من تسلط وقهر فأفسركم على الكفر والمعاصي والجحيم إليها، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُمْ﴾: إلا دعائي إليكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني، وليس الدعاء من جنس السلطان؛ ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب، ﴿فَلَا تُلْمُوْنِي وَلَوْلَا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ حيث اغتررتهم بي وأطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم، وهذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه^(١)، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم؛ فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

فإن قلت: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به.

قلت: لو كان هذا القول منه باطلاً، لبين الله بطلانه، وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَوَعَدْتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ﴾ كيف أتى فيه بالحق والصدق، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَسْعَلَكَ مِنَ الْقَبَايِنِ ۗ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿مَا أَنَا بِمُضِرِّكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُضْرَجٍ﴾: لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه، والإصراخ: الإغاثة، وقرئ: «بمصرخي»: بكسر الياء، وهي ضعيفة؛ واستشهدوا لها بيت مجهول [من الرجز]:

قَالَ لَهَا: هَلْ لَكَ يَأْتَا فِي؟ قَالَتْ لَهُ: مَا أَنْتَ بِالْمَرْضِيِّ^(٢)

= عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل، فلا تناقض إذا بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف، والله الموفق.

(١) قوله: «يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه» هذا مذهب المعتزلة، وقوله: «المجبرة» يعني أهل السنة، ومذهبهم أن الله هو الخالق لأسباب السعادة وأسباب الشقاوة، لكن العبد له فيها الكسب. ومن هذا يتوجه عليه اللوم، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن العبد هو الخالق لها، وهو الذي يحصل لنفسه. وتحقيقه في علم التوحيد (ع).

(٢) قال لها: هل لك يأتا في؟ قالت له: ما أنت بالمرضي

ماض إذا ما هم بالمرضي

قائله مجهول. وتا: اسم إشارة، أي: هل لك يا هذه المرأة رغبة في. وأصل ياء المتكلم السكون، فإن حركت فبالتفتح، لكن لما التقت هنا ساكنة مع الياء قبلها ساغ كسرهما، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين. وقالت: استئناف، كأنه قيل له: فماذا قالت؟ فقال: قالت له لست مرضياً، فإنك رجل ماض في كل أمرتهم فيه، فماض: خبر لمبتدأ محذوف. والجملة: استئناف جواب للسؤال عن علة عدم الرضا. وعبر بضمير الغيبة في قوله: هم نظراء للخير. ويجوز تقدير المبتدأ =

وكانه قدّر ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة، فحرّكها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين، ولكنه غير صحيح؛ لأنّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة؛ حيث قبلها ألف في نحو عصاي، فما بالها وقبلها ياء؟

فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح؛ لأجل الإدغام، فكانها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن، فحرّكت بالكسر على الأصل.

قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات، «ما» في: ﴿يَمَّا أَشْرَكْتُمْ﴾: مصدرية، و﴿مِن قَبْلِكَ﴾: متعلقة بأشركتموني، يعني: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ لِّمَنكُم مِّمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [المتحنة: ٤] وقيل: (من قبل): يتعلق بكفرت، وما: موصولة، أي: كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه، وهو الله - عزّ وجلّ - تقول: شركت زيدا، فإذا نقلت بالهمزة قلت: أشركنيه فلان، أي: جعلني له شريكاً، ونحو «ما» هذه «ما» في قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا، ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان^(١) وغيرها، وهذا آخر قول إبليس، وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾: قول الله - عزّ وجلّ - ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس؛ وإنما حكى الله - عزّ وجلّ - ما سيقوله في ذلك الوقت؛ ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم، والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه، وأن يتصوّرروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم، وقرئ: «فلا يلوموني»: بالياء على طريقة الالتفات؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَاحِ وَجَرَيْنَ رِيحًا﴾ [يونس: ٢٢].

﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: «وأدخل الذين آمنوا»^(٢): على فعل المتكلم، بمعنى:

- = لفظ «هو» فيكون التثاناً من الخطاب إلى الغيبة، دلالة على الإعراض عنه، وذكر السبب لغيره.
البيت للأغلب العجلي في ديوانه ص ١٦٩، حاشية يس (٢/٦٠)، خزانة الأدب (٤/٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٧)، وبلا نسبة في شرح عمدة الحفاظ (ص ٥١٣)، المحتسب (٢/٤٩).
(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ومنّ منع ذلك جعل» «سبحان» علماً للتسبيح، كما جعل «برّة» علماً للمبرّة. انتهى. الدر المصون.
(٢) قال محمود: «وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: وأدخل الذين آمنوا على فعل المتكلم... إلخ» قال =

وأدخل أنا، وهذا دليل على: أنه من قول الله، لا من قول إبليس، ﴿يَاذِنِ رَبِّهِمْ﴾: متعلق بأدخل، أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره.

فإن قلت: فيم يتعلق في القراءة الأخرى، وقولك: وأدخلهم أنا بإذن ربهم، كلام غير ملتئم؟

قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله: ﴿يَاذِنِ رَبِّهِمْ﴾ بما بعده، أي: ﴿تَمَيَّنُّهُمْ فَيَا سَلِّمْ﴾: بإذن ربهم، يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَاذِنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قري: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ساكنة الراء، كما قرئ: «من يتق»، وفيه ضعف، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾: اعتمد مثلاً ووضعها، و﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: نصب بمضمر، أي: جعل كلمة طيبة، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وهو تفسير لقوله: (ضرب الله مثلاً)؛ كقولك: شرف الأمير زيداً: كساه حلة، وحمله على فرس، ويجوز أن ينتصب (مثلاً)، و(كلمة): بضرب، أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً، بمعنى: جعلها مثلاً، ثم قال: (كشجرة طيبة): على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: هي كشجرة طيبة، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يعني: في الأرض، ضارب بعروقه فيها، ﴿وَفَرْعُهَا﴾: وأعلاها ورأسها، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، ويجوز أن يريد: وفروعها، على الاكتفاء بلفظ الجنس، وقرأ أنس بن مالك: «كشجرة طيبة ثابت أصلها». / ١٨٣ باب

فإن قلت: أي فرق بين القراءتين؟

قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأن في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت: مررت برجل أبوه قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؛ لأن المخير عنه إنما هو الأب لا رجل، والكلمة الطيبة: كلمة التوحيد، وقيل: كل كلمة حسنة كالنسيحة، والتحميدة، والاستغفار، والتوبة، والدعوة، وعن ابن عباس: شهادة أن

= أحمد: فإن قلت: ما الذي صرف الزمخشري عن حمله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة، وألجأه إلى تعليقه بما بعده، وقد كانت له في ذلك مندوحة، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ثم قال ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ ولم يقل تنزيلاً منا. قلت: لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه، وهو أن ظاهر (أدخل) بلفظ المتكلم، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة، بل من الله تعالى مباشرة، وظاهر الإذن يشعر بإضافة الدخول إلى الوساطة، فبينهما تنافر، ولكن يحسن عندي أن يعلق بخالدين، والخلود غير الدخول، فلا تنافر، والله أعلم.

لا إله إلا الله، وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار، كالنخلة، وشجرة التين، والعنب، والرمان، وغير ذلك، وعن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ شَجَرَةً فَأَخْبِرُونِي مَا هِيَ» ح، فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبياً، فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغر القوم، وروى: فتمعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بني، لو كنت قلتها لكانت أحب إليّ من حمر النعم، ثم قال رسول الله ﷺ: «أَلَا إِنَّهَا النَّخْلَةُ» (٨١٠). وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: شجرة في الجنة، وقوله: (في السماء) معناه: في جهة العلوّ والصعود، ولم يرد المظلة؛ كقولك في الجيل: طويل في السماء: تريد ارتفاعه وشموخه، ﴿تَوَاتَرَتْ أُمَّكَلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾: تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: بتيسير خالقها وتكوينه، ﴿لَمَّا هُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (١٦)

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: كمثل شجرة خبيثة، أي: صفتها كصفتها، وقرئ: «ومثل كلمة بالنصب»: عطفاً على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة: كلمة الشرك، وقيل: كل كلمة قبيحة، وأما الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوت^(١)، ونحو ذلك، وقوله: ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾: في مقابلة قوله: (أصلها ثابت)، ومدنى: ﴿اجْتُثَّتْ﴾: استوصلت، وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجثة كلها، ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: استقرار، يقال: قر الشيء قراراً؛ كقولك: ثبت ثباتاً، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة، فهو داحض غير ثابت والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه، من قولهم: الباطل لجلج^(٢)، وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما

٨١٠ - أخرجه البخاري (٤٨١/٩) كتاب الأطعمة باب أكل الجمار حديث رقم (٥٤٤٤)، ومسلم (١٦٧/٩) - (١٦٨) نووي، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب مثل المؤمن حديث رقم (٢٨١١). وقال الحافظ في تخریج الكشاف: متفق عليه وله ألفاظ. انتهى.

- (١) قوله: «والكشوت» في الصحاح الكشوت نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. قال الشاعر [من البسيط]:
هو الكشوت فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر (ع)
- (٢) قوله: «من قولهم: الباطل لجلج» في الصحاح: الحق أبلج، والباطل لجلج، أي: يردد من غير أن ينفذ (ع).

أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ
الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾: الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا: أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما، وتثبيتهم في الآخرة، أنهم إذا سئلوا عند تواقف الشهداء عن معتقدهم ودينهم، لم يتلعثموا ولم يبهتوا، ولم تحيرهم أهوال الحشر، وقيل: معناه: الثبات عند سؤال القبر، وعن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثُمَّ يُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجَلِّسَانِيهِ فِي قَبْرِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٍ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ^(١)» (٨١١)، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾: الذين لم يتمسكوا بحجة في دينهم؛ وإنما اقتصرُوا على تقليد كبارهم وشيوخهم، كما قلده المشركون آباءهم فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ هَذِهِ فَمُتُّمْ عَلَيْهِمْ وَالْحِجَابُ حُبْلٌ عَلَيْنَا وَمَا لَنَا بِمَا كَفَرُوا وَلَا لَنَا بِهِ عِلْمٌ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يشبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأذل، ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: ما توجبه الحكمة؛ لأن مشيئة الله تابعة للحكمة، من تثبيت المؤمنين وتأييدهم، وعصمتهم عند

٨١١ - أخرجه أبو داود (٢١٣/٣) كتاب الجنائز باب الجلوس عند القبر حديث (٣٢١٢) من طريق المنهال ابن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

هذا طرف من حديث له طويل، أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وابن راهويه وابن أبي شيبة وأبو يعلى من رواية سعد بن عبيدة عند البخاري مرفوعاً في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر: يقال له: من ربك وما دينك؟ فيقول: ربي الله. ونبي محمد ﷺ، وذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا... الآية﴾. انتهى.

(١) قوله: «القول الثابت الذي ثبت بالحجة» لما فسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد والخبيثة بكلمة الشرك، فالمتجه تفسير القول الثابت بقول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وإضلال الظالمين بإقائهم على كلمة الشرك، ﴿إِنَّكَ أَنتَ رَبُّكَ لَطَلٌُّ عَظِيمٌ﴾ وأما التمسك بالحجة وتقليد الشيوخ فبعيد عن السياق. وفيه رد على أهل السنة المكتفين بالتقليد في تحقق الإيمان (ع).

نبتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم، والتخلى بينهم وبين شأنهم عند زلزلهم.
 ﴿الَّذِينَ يَدَّبُّوا ظُهُورَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ يُحَدِّثُونَ أَنَّ إِلَهُتَهُمُ الْغُلُوبُ﴾ (٢٨) ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا
 وَيَنَسُّوا الْقَرَارَ﴾ (٢٩) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى
 النَّارِ﴾ (٣٠)

﴿يَدَّبُّوا ظُهُورَهُمْ﴾ أي: شكر نعمة الله، ﴿كُفْرًا﴾؛ لأن شكرها الذي وجب عليهم
 وضعوا مكانه كفراً، فكانهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً؛ ونحوه: ﴿وَيَتَمَلَّوْنَ رِزْقَكُمْ
 أَذْكُمْ تَكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢) أي: شكر رزقكم؛ حيث وضعت التأكيد موضعاً، ووجه
 آخر: وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفراً على أنهم لما كفروا سلبوها، فبقوا مسلوبي النعمة
 موصوفين بالكفر، حاصلًا لهم الكفر بدل النعمة^(١)، وهم أهل مكة: أسكنهم الله حرمه،
 وجعلهم قوام بيته، وأكرمهم بمحمد ﷺ فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم،
 أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضر بهم
 بانقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة؛ كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد
 ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم، وعن عمر - رضي الله عنه -: هم
 الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو
 أمية: فتمتعوا حتى حين، وقيل: هم متنصرة العرب: جبلة بن الأيهم وأصحابه، ﴿وَأَحْلَوْا
 قَوْمَهُمْ﴾: ممن تابعهم على الكفر، ﴿دَارَ الْبُورِ﴾: دار الهلاك، وعطف: ﴿جَهَنَّمَ﴾ على
 دار البوار عطف بيان، قرئ: (ليضلوا): بفتح الياء وضمها.

فان قلت: الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد، فما معنى اللام؟
 قلت: لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد، / ١١٨٤ كما كان الإكرام في
 قولك: جئتك لتكرمني، نتيجة المجيء، دخلته اللام وإن لم يكن غرضاً، على طريق
 التشبيه والتقريب، ﴿تَمَتَّعُوا﴾: إيدان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر، وأنهم لا
 يعرفون غيره ولا يريدونه، مأمورون به، قد أمرهم أمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا
 يملكون لأنفسهم أمراً دونه، وهو أمر الشهوة، والمعنى: إن دمت على ما أنتم عليه من
 الامتثال لأمر الشهوة، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، ويجوز أن يراد الخذلان والتخلى؛
 ونحوه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
 يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (٣١)

(١) قال السمين الحلبي: وعلى هذا فلا يحتاج إلى حذف مضاف على هذا. انتهى. الدر المصون.

المقول محذوف^(١)، لأن جواب (قل): يدل عليه؛ وتقديره: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أقيموا الصلاة وأنفقوا، ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا﴾: وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا، بمعنى: لقيموا ولينفقوا، ويكون هذا هو المقول، قالوا: وإنما جاز حذف اللام؛ لأن الأمر الذي هو (قل): عوض منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام، لم يجز.

فإن قلت: علام انتصب: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؟

قلت: على الحال، أي: ذوي سرّ وعلانية، بمعنى: مسرين ومعلنين، أو على الظرف، أي وقتي سرّ وعلانية، أو على المصدر، أي: إنفاق سرّ وإنفاق علانية، المعنى: إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب، والخلال: المخالة.

فإن قلت: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه: ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾^(٢)؟

قلت: من قبل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات، فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها، وأما الإنفاق لوجه الله خالصاً؛ كقوله: ﴿وَمَا لِأَلْمَدَةِ عِنْدَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ جَزَاءً إِلَّا بِإِيقَافٍ وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال، أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكارمات؛ وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله، وقرئ: «لا بيع فيه ولا خلال»، بالرفع.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا

(١) قال محمود: «المقول محذوف... إلخ» قال أحمد: وفي هذا الإعراب نظر، لأن الجواب حينئذ يكون خبراً من الله تعالى، بأنه إن قال لهم هذا القول امتثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا، لكنهم قد قيل لهم فلم يمثل كثير منهم، وخبر الله تعالى يجلب عن الخلف، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الإعراب مع تبادره فيما ذكر بادي الرأي، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق، ويقوى بوجهين لطيفين، أحدهما: أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالإيمان الحق المنزه بإيمانه عند الأمر، كهذه الآية وكقوله ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا لِّأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾، ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾، ﴿وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ الثاني: تكرر مجيئه لموصوفين بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى اسم الله، وقد قالوا إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز إلا مدحة للمؤمنين، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف، فالحاصل من ذلك أن المأمور في هذه الآي من هو بصدد الامتثال وفي حيز المسارعة للطاعة، فالخير في أمثالهم حق وصدق، إما على العموم إن أريد، أو على الغالب، والله أعلم.

(٢) قوله: «بأنه لا بيع فيه ولا خلال» هذه القراءة بالبناء على الفتح (ع).

لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ
لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا
سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

﴿الله﴾: مبتدأ، و﴿الَّذِي خَلَقَ﴾: خبره، و﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: بيان للرزق، أي: أخرج به رزقاً هو ثمرات، ويجوز أن يكون: (من الثمرات): مفعول أخرج، و﴿رِزْقًا﴾: حالاً من المفعول، أو نصباً على المصدر من أخرج؛ لأنه في معنى رزق، ﴿بِأَمْرِهِ﴾: بقوله كن، ﴿دَائِبَيْنِ﴾: يدابان في سيرهما وإنارتهما ودرنهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض، والأبدان والنبات، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾: يتعاقبان خلفه لمعايشكم وسباتكم^(١)، ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: من للتبويض، أي: آتاكم بعض جميع ما سألتموه؛ نظراً في مصالحكم، وقرئ: «من كلِّ بالتونين»، وما سألتموه نفي ومحله النصب على الحال، أي: آتاكم من جميع ذلك غير سائله، ويجوز أن تكون (ما): موصولة، على: وآتاكم من ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال، ﴿لَا تَحْصُوهَا﴾: لا تحصروها ولا تطبقوا عدها وبلغوا آخرها؛ هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال، وأما التفصيل: فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله، ﴿لَظَلُومٌ﴾: يظلم النعمة بإغفال شكرها، ﴿كَفَّارٌ﴾: شديد الكفران لها، وقيل: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع، والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّانَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

﴿هَذَا الْبَلَدَ﴾ يعني: البلد الحرام، زاده الله آمناً، وكفاه كل باغ وظالم، وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم، عليه السلام، ﴿ءَامِنًا﴾: ذا أمن.

فإن قلت: أي فرق بين قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، وبين قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾؟

قلت: قد سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يخرجها من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد

(١) قوله: «وسباتكم» في الصحاح: السبات النوم، وأصله الراحة، ومن قوله تعالى (وجعلنا نومكم سباتاً) (ع).

مخوف، فاجعله آمناً، ﴿وَأَجْنِبْنِي﴾، وقرئ: «وأجنبني»، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، وأجنبه؛ فأهل الحجاز يقولون: «جنبني شره»: بالتشديد، وأهل نجد: «جنبني وأجنبني»، والمعنى: ثبتنا وأدمننا على اجتناب عبادتها، ﴿وَيَنْبِي﴾: أراد بنيه من صلبه، وسئل ابن عيينة: كيف عبدت العرب الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً؛ واحتج بقوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَيَنْبِي﴾، ﴿أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾؛ إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم، قالوا: البيت حجر، فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقال: دار بالبيت، ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾: فأعوذ بك أن تعصمني^(١)، وينبي من ذلك؛ وإنما جعلن مضلات؛ لأن الناس ضلوا بسببهن، فكأنهن أضلنهم، كما تقول: فتتهم الدنيا وغزتهم، أي: افتتنوا بها واغترروا بسببها، ﴿فَمَنْ يَتَّبِعْ﴾: على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي، ﴿فَإِنَّهُ يَنْبِي﴾ أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي، وكذلك قوله: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» (٨١٢)، أي: ليس بعض المؤمنين، على أن الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم،

٨١٢ - أخرجه مسلم (٣٤٨/١ - الأبي) كتاب الإيمان: باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا» حديث (١٠٢/١٦٤)، وأبو داود (٢٩٤/٢) كتاب البيوع: باب في النهي عن الغش حديث (٣٤٥٢)، والترمذي (٥٩٧/٣) كتاب البيوع: باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع حديث (١٣١٥)، وابن ماجه (٧٤٩/٢) كتاب التجارات: باب النهي عن الغش حديث (٢٢٢٤)، وأبو عوانة (٥٧/١)، وأحمد (٢٤٢/٢)، والحميدي (٤٤٧/٢) رقم (١٠٣٣)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٥٦٤)، وابن جبان (٤٩٠٥ - الإحسان)، وابن منده في «الإيمان» رقم (٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٣٤/٢)، والحاكم (٨/٢ - ٩)، والبيهقي (٣٢٠/٥) كتاب البيوع، كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة به وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. قلت: وقد وهم رحمه الله في ذلك فالحديث في صحيح مسلم كما تقدم في التخريج. وللحديث شواهد من حديث ابن عمر وأبي بردة بن نيار وابن مسعود والحارث بن سويد وقيس بن أبي غرزة وأبي الحمراء وعائشة.

- حديث ابن عمر:

أخرجه أحمد (٥٠/٢) والبخاري (٨٢/٢ - كشف) رقم (١٢٥٥) من طريق أبي معشر عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من غشنا فليس منا» والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/٢٨٨) وقال: رواه أحمد والبخاري والطبراني في «الأوسط» وفيه أبو معشر وهو صدوق وضعفه جماعة.

وللحديث طريق آخر عن ابن عمر

أخرجه الدارمي (٢٤٨/٢) كتاب البيوع: باب في النهي عن الغش، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٥١) من طريق يحيى بن المتوكل ثنا القاسم بن عبيد الله عن عمه سالم بن عبد الله عن ابن عمر =

(١) قوله: «فأعوذ بك أن تعصمني» لعله أن لا تعصمني (ع).

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي، وقيل: معناه: ومن عصاني فيما دون الشرك.

= به. ويحيى بن المتوكل قال الحافظ في «التقريب» (٣٥٦/٢) ضعيف.

- حديث أبي بردة بن نيار:

أخرجه أحمد (٤٦٦/٣) والبخاري (٦٨/١ - كشف) رقم (٦٨) والطبراني في «الكبير» (١٩٨/٢٢) رقم (٥٢١) وابن أبي شيبة (٢٩٠/٧) كلهم من طريق جميع بن عمير عن عمه يعني أبا بردة مرفوعاً.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٣١/٢): رواه البزار وفيه جميع بن عمير وثقه أبو حاتم وضعفه البخاري وغيره.

- حديث ابن مسعود:

أخرجه ابن جبان (٥٦٧) والطبراني في «الكبير» (١٠٢٣٤) وفي «الصغير» (٢٦١/١) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٨٨/٤ - ١٨٩) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٥٣) كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن زر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من غشنا فليس منا، والمكر والخديعة في النار».

- حديث الحارث بن سويد:

أخرجه الحاكم (٩/٢).

- حديث قيس بن أبي غرزة:

أخرجه أبو يعلى (٢٣٣/٢) رقم (٩٣٣) من طريق الحكم بن عتيبة عن قيس بن أبي غرزة مرفوعاً بلفظ: «من غش المسلمين فليس منهم».

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨٢/٤) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (١٣٦١) وعزاه إلى أبي يعلى.

- حديث أبي الحمراء:

أخرجه ابن ماجه (٧٤٩/٢) كتاب التجارات: باب النهي عن الغش حديث (٢٢٢٥) من طريق أبي داود عن أبي الحمراء به مرفوعاً.

وأبو داود هو نفيح بن الحارث الأعمى متروك كذبه ابن معين وغيره.

- حديث عائشة:

أخرجه البزار (٨٣/٢ - كشف) رقم (١٢٥٦) وقال البزار: لا نعلمه عن عائشة إلا بهذا الإسناد والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (٨١/٤) وقال: ورجاله ثقات.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن جبان من حديث ابن مسعود وإسحاق والبزار من حديث ابن عمر. والبخاري في التاريخ. والطبراني في الأوسط من حديث البراء. والبزار من حديث عائشة. وابن أبي شيبة من حديث أبي الحمراء. والحاكم من رواية عمير بن سعيد النخعي وابن أبي شيبة من رواية جميع بن عمير عن خالد بن برمجة، والطبراني من حديث أبي موسى، والبيهقي في الشعب من طريق حسين بن عبد الله بن ضمرة عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كذلك أخرجه البيهقي في الشعب، وأخرجه الطبراني من هذا الوجه. فلم يذكر علياً. وأخرجه أبو نعيم عن أنس وعن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي ربيعة عن جده به. انتهى.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
فَأَجْعَلْ أَعْيُنَهُمْ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: بعض أولادي، وهم/ ١٨٤ اب إسماعيل ومن ولد منه، ﴿بِوَادٍ﴾: هو وادي مكة، ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾: لا يكون فيه شيء من زرع قط؛ كقوله: ﴿قُرْآنًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير، وقيل: للبيت المحرم، لأن الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنوعاً عزيزاً يهابه كل جبار، كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه، أو لأنه حرّم على الطوفان، أي: منع منه، كما سمي عتيقاً؛ لأنه أعتق منه فلم يستول عليه، ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: اللام متعلقة بأسكنت، أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتق، إلا ليقوموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك وتمعباتك، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله، مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك، ﴿أَعْيُنَهُمْ مِنَ النَّاسِ﴾: أفئدة من أفئدة الناس، ومن للتبعيض؛ ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل (من): لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند، ويجوز أن يكون (من): للابتداء؛ كقولك: «القلب مني سقيم» تريد: قلبي، فكأنه قيل: أفئدة ناس؛ وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتأكيد أفئدة؛ لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة^(١)، وقرئ: «أفدة»: بوزن عاقدة، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون من القلب كقولك: آدر، في أدور، والثاني: أن يكون اسم فاعلة من أفدت الرحلة إذا عجلت، أي: جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم، وقرئ: «أفدة»، وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين، وأن يكون من أفد ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً؛ من قوله [من الكامل]:

يَهْوِي مَخَارِمَهَا هَوِي الْأَجْدَلِ^(٢)

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يظهر كونها للغة، لأنه ليس لنا فعل يبتدأ فيه بغاية ينتهي إليها، إذ لا يصح جعل ابتداء الأفئدة من الناس»، انتهى. الدر المصون.

(٢) فإذا نبذت له الحصاة رأيتَه ينزرو لوقعتها طمور الأخلل
وإذا يهب من المنام رأيتَه كرتوب كعب الساق ليس بزمل
وإذا رميت به الفجاج رأيتَه يهوي مخارمها هوي الأجدل

وقرى: «تَهْوِي إِلَيْهِمْ»، على البناء للمفعول، من هوى إليه وأهواه غيره، وتهوى إليهم، من هوى يهوي إذا أحب، ضمن معنى تنزع فعدي تعديته، ﴿وَأَرْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾: مع سكتاهم وادياً ما فيه شيء منها، بأن تجلب إليهم من البلاد، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾: النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد يباب ليس فيه نجم^(١) ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله - عز وجل - أجاب دعوته، فجعله حراماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لده، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي: بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله بواد غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه^(٢) المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والحريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب - متعنا الله بسكنى حرمه - ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم - عليه السلام - ورزقنا طرفاً من سلامة ذلك القلب السليم.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعَلِّمُ وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٨)
 لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾

النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى، ﴿إِنَّكَ تَعَلَّمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعَلِّمُ﴾: تعلم السر كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه؛ لأن غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك،

= وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل
 لأبي كبير الهدلي، يصف تأبط شرا بالتيقظ والشجاعة، يقول: إذا رميت له الحصاة مجرباً له هل هو نائم أو صاح، ينزو: أي يشب بسرعة، طمور الأخیل: أي وثوب الأخیل، أي ينهض كنهوضه: وهو طير تتشاهم منه العرب، وأصله من التخيل، وقيل من الخيلاء. ورتب رتباً: انتصب انتصاباً وارتفع ارتفاعاً، أي: رأيته يرتفع عن الأرض كارتفاع كعب الساق. والزمل والزمال والزميل - بشديد الميم فيها - هو الضعيف الملتف بشيابه، ثم قال: وإذا فذفته في نواحي الأمكنة المتسعة، رأيته يهوي مخارمها، أي: يسرع في سلوك مسالكها الضيقة، كهوي الأجدل وهو الصفر، أي كإسراعه في الطيران. وبروى: الجندل وهو الحجر. والأسرة: خطوط الجبهة جمع سرار. والعارض: السحاب المعترض في الأفق. والمتهلل: اللامع، أو العرتفع الذي سيمطر. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت قاعدة أغزل عند رسول الله ﷺ وهو يخصف نعله، فتحضر جبينه عرقاً، فتولد في عيني نوراً، فجعلت أنظر إليه فقال: ما تنظرين؟ فقلت له ذلك، وقلت: أما والله لو رآك الهدلي لعلم أنك أحق بشعره، فقال: وما قال؟ قلت: وإذا نظرت... البيت. فوضع ما في يده وقام فقبل ما بين عيني وقال: جزاك الله خيراً، ما سررت كسروري بكلامك.
 ينظر: ديوان الهدليين (٩٤/٢)، البحر المحيط (٤٢٩/٥)، اللسان «خرم»، الدر المصون (٤/٢٧٤).

(١) قوله: «في واد يباب ليس فيه نجم» أي خراب. والنجم: نبات لا ساق له، كذا في الصحاح (ع).

(٢) قوله: «وهي اجتماع البواكير والفواكه» الباكورة: أول الفاكهة، كما في الصحاح (ع).

والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب؛ وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذلاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أياديك، وولهاً إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده؛ رغبة في إصابة معروفه، مع توفر السيد على حسن الملكة، وعن بعضهم: أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح، فأراد أن يذكره فقال: مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته ألا يتكلم فيها، وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن: يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم، قالت: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا نخشى، تركتنا إلى كاف، ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾: من كلام الله - عز وجل - تصديقاً لإبراهيم - عليه السلام - كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، أو من كلام إبراهيم، يعني: وما يخفي على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان، «ومن»: للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفي عليه شيء ما، (على) في قوله: ﴿عَلَى الْكَبِيرِ﴾، بمعنى: مع؛ كقوله [من المنسرح]:

إِنِّي عَلِيٌّ مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ^(١)
وهو في موضع الحال، معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبير، روي أن إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق، وهو ابن مائة وثنني عشرة سنة، وقد روي أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإسحاق لتسعين، وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر/ ١١٨٥ حال الكبير؛ لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾: كان قد دعا ربه وسأله الولد، فقال: رب هب لي من الصالحين، فشكر الله ما أكرمه به من إجابته.

(١) ترين: أصله ترأين كتفعلين، نقلت فتحة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت وحذفت الياء الأولى بعد قلبها ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. يقول: إني مع ما تنظرينه من كبري وهرمي الموجب للخرف عادة، عارف بالأمور متيقظ لها. وكنى عن ذلك بقوله: أعرف من أين تؤكل الكتف، أي: أعرف جواب هذا الاستفهام، ويروى: من حيث، فلعل من زائدة. قال بعضهم: تؤكل الكتف من أسفلها وبشق أكلها من أعلاها، وهو مثل يضرب للمجرب المتفطن للأمور.
ينظر: البحر (٤/٤٣٤)، روح المعاني (١٣/٢٤٢)، بلا نسبة في تاج العروس (كتف)، ولقيس بن الخطيم في ديوانه (ص ٢٣٩)، الدر المصون (٤/٢٧٥).

فإن قلت: الله تعالى يسمع كل دعاء، أجابه أو لم يجبه.

قلت: هو من قولك: سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله، ومنه: سمع الله لمن حمده، وفي الحديث: «مَا أَدْنَىٰ اللَّهُ لِشَيْءٍ كَاذِبُهُ لِنَبِيِّ يَتَعَنَّيَ بِالْقُرْآنِ»^(١) (٨١٣).

فإن قلت: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟

قلت: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله: لسميع الدعاء، وقد ذكر سيبويه فعلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل؛ كقولك: هذا ضروب زيدا، وضراب أخاه، ومنحار إبله، وحذر أموراً، ورحيم أباه، ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي، والمراد: سماع الله.

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: وبعض ذريتي، عطفاً على المنصوب في اجعلني؛ وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذريته كفار؛ وذلك قوله: ﴿لَا يَتَّأَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي: عبادتي، ﴿وَأَغْفِرْ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم ٤٨]، في قراءة أبي: «ولأبوي». وقرأ سعيد بن جبير: «ولوالدي»: على الأفراد، يعني: أباه، وقرأ الحسن بن علي - رضي الله عنهما - ولولدي، يعني: إسماعيل وإسحاق. وقرئ: «لوالدي»: بضم الواو، والولد بمعنى: الولد، كالعدم والعدم، وقيل: جمع ولد، كأسد في أسد، وفي بعض المصاحف: «ولذريتي».

فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟

قلت: هو من مجوزات العقل^(٢)، لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء، وقيل: بشرط الإسلام، وبأباه قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ ابْنِزِيمٍ لِأَبِيهِ لِأَسْتَفِرَّ لَكَ﴾

٨١٣ - أخرجه البخاري (٥١٨/١٣) كتاب التوحيد باب قول النبي ﷺ: الماهر بالقرآن حديث (٢٥٤٤)، ومسلم (٥٤٥/١) كتاب صلاة المسافرين: باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن حديث (٢٣٣/٧٩٢)، من حديث أبي هريرة. وقال الحافظ في تخریج الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - انتهى.

(١) قوله: «كأذنه لنبي يتعنى بالقرآن» في الصحاح: كأذنه لمن يتعنى... إلخ (ع).
(٢) قوله: «هو من مجوزات العقل» يعني على مذهب المعتزلة أن العقل قد يدرك الحكم بدون شرع، ومذهب أهل السنة أن لا حكم قبل الشرع حتى يدرك بدونه، فافهم (ع).

[المنحة: ٤]؛ لأنه لو شرط الإسلام، لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتى فيه بإبراهيم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يثبت، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل؛ والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها، ونحوه قولهم: ترجلت الشمس: إذا أشرقت وثبت ضوءها، كأنها قامت على رجل، ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً، أو يكون مثل: (واسئل القرية)، وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما سأل، فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، وجعل البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماماً، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين، فلما قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، الآية، رفعها الله فوضعها؛ حيث وضعها رزقاً للحرم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [٤٢] ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [٤٣]

فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا﴾؟

قلت: إن كان خطاباً لرسول الله ﷺ ففيه وجهان:

أحدهما: التثيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً؛ كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]. ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، كما جاء في الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

والثاني: أن المراد بالنهي عن حسبانته غافلاً، الإيدان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد؛ كقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] يريد الوعيد، ويجوز أن يراد: ولا تحسبته يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم، المحاسب على النقيض والقطمير، وإن كان خطاباً لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه، وعن ابن عيينة: تسليية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له: من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه، وقرئ: «يؤخرهم»: بالنون والياء، ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: أبصارهم لا تقف في أماكنها من هول ما ترى، ﴿مُهْطِعِينَ﴾: مسرعين إلى الداعي، وقيل: الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف، ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: رافعيها، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾: لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم، أي: لا يطرفون، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة

غير تحريك للأجفان، أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم، الهواء: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام، فوصف به فليل: قلب فلان هواء: إذا كان جباناً لا قوّة في قلبه ولا جرأة؛ ويقال للأحمق - أيضاً -: قلبه هواء؛ قال زهير [من الوافر]:

..... مِنْ الظُّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءٌ^(١)

لأنّ النعام مثل في الجبن والحقق؛ وقال حسان [من الوافر]:

..... فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخْبِ هَوَاءٌ^(٢)

(١) كأن الرجل منها فوق صعل أصك مصلم الأذنين أجنى لزهير بن أبي سلمى يصف ناقته. والصعل: المنجرد شعر الرأس والصغير الرأس. والظلمان: جمع ظليم وهو ولد النعام، والجؤجؤ: الصدر. والهواء: الخالي الفارغ. وجعل صدره فارغاً ليكون أسرع في السير إلى طعامه. والأصك: الذي تصطك ركبته عند المشي لطول رجله. وصلمه: قطعه. والتصليم: مبالغة. ويقال: أجنى الثمر إذا أدرك، وأجنت الأرض: كثر كلؤها وحصبها. والسن، المكان المستوي واسم موضع بعينه. والتنوم - وزن تنور -: شجر تنفلق كمامه عن حب صغير تأكله أهل البادية، يغلب على لونه السواد. قيل: وهو شجر الشهدانج. والآء: جنس من الشجر واحده آءة. وقيل: ثمر ذلك الشجر يطلق على نوع من الصوت: والتنوم: فاعل أجنى، أي كثر له في ذلك المكان هذان النوعان.

ينظر: ديوانه ص ٦٣، ولسان العرب: (أوأ)، (هوا)، ومقاييس اللغة: ١٥/٦، والمخصص: ٣/٦٤، ١٢٠/١٥، ومجمل اللغة ٤/٤٥٥، وتاج العروس (أوأ) (هوى).

(٢) ألا أبلغ أبا سفيان عني بأن سيوفنا تركت عبيداً هجوت محمداً فأجبت عنه أتتهجوه ولست له بكفء فمن يهجو رسول الله منكم فلإن أبي ووالده وعرضي

لحسان يهجو أبا سفيان قبل إسلامه. وإلا للتنبيه، والمأمور بالإبلاغ غير معين، وكان الظن أن يقول: فإنه، أي: أبا سفيان، لكن خاطبه بالذم لأنه أغيظ. ويجوز أن المأمور أبو سفيان، فهو منادى يحذف حرف النداء. والمجوف والنخب والهواء: خالي الجوف، أو فارغ القلب من العقل والشجاعة. وروي بدل هذا الشطر «مغلغلة فقد برح الخفاء» والمغلغلة: الحارة من الغلة بالضم، وهي شدة العطش والحرارة. وقيل: المتقولة من مكان لآخر، وبرح كسمع: ذهب وزال. وقيل: ظهر واتضح من براح الأرض وهو البارز منها، فالخفا بمعنى التستر أو السر. وإسناد الترك للسيوف مجاز عقلي، لأنها آلة للفعل. وعبيد بالتصغير قبيلة، وكذلك عبد الدار، وسادتها مبتدأ. والإماء خيره، والجملة في محل المفعول الثاني لترك، أي صيرت عبيداً لا سادة لها إلا النساء، وصيرت عبد الدار كذلك، يعني: أننا أفئتنا رجالهما الرؤساء الأشراف، فأشراقهما النساء لا غير، بل يجوز أنهم سواء الحرائر أيضاً، فلم يبق إلا الرقائق. وأتتهجوه: استفهام توبيخي، والووا بعده للحال، أي: لا ينبغي ذلك شر وخير، من قبيل أفعال التفضيل، واختصا بحذف همزتهما تخفيفاً لكثرة =

وعن ابن جريج: ﴿وَأَفِيدَتَهُمْ هَوَاءٌ﴾: صفر من الخير خاوية منه، وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَهَ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن رَّوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَسْتُمْ فِي مَسَكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِن كَانَتْ مَكَرُهُمْ لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفًا وَعَدِيدُهُ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾: مفعول ثان لأنذر، وهو يوم القيامة، ومعنى ﴿آخِرْنَا إِلَهَ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: ردتنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب، نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك، واتباع رسلك، أو أريد باليوم: يوم هلاكهم / ١٨٥ ب بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب؛ كقوله: ﴿لَوْلَا لَعْنَتِيْ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ﴾ [المنافقون: ١٠]، ﴿أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾: على إرادة القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطراً وأشراً، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال؛ حيث بنوا

= استعمالهما، لكن المراد بهما هنا أصل الوصف لا الزيادة فيه والشر أبو سفيان، والجملة دعائية، دعا عليه بأن يكون فداءً لرسول الله ﷺ، وأبرزه في صورة الإبهام لأجل الإنصاف في الكلام، ولذلك لما سمعه الحاضرون قالوا: هذا نصف بيت قاله العرب، فعليك بالإنصاف وأمن يهجو: استفهام إنكاري، أي ليس من يهجو منكم ومن يمدحه وينصره منا مستويين. ويحتمل أن الهمزة للتنبيه، أو للنداء، والمنادى محذوف، أي: يا قوم أبي سفيان إن الذي يهجو رسول الله منكم والذي يمدحه وينصره منكم مستويان في عدم الاكترات بهما وروي: فمن، ولا بد من تقدير، أي: من يهجو ويخذله منكم ليقابل الخذلان النصر كالهجو والمدح، ثم إن في هذا دليلاً على جواز حذف الموصول، وقد أجازة الكوفيون والأخفش، وتبعهم أبو مالك، وشرط كونه معطوفاً على موصول آخر كما هنا. وقوله: ووالده، أي والد أُمي. ويروى: والوالدي. والوقاء: ما يتوقى به المكروه. كالترس وزن الحزام والرباط للمفعول به الفعل، فهو إما بمعنى اسم مفعول أو اسم الآلة. ورأيت في كلام الزمخشري ما يفيد تسمية هذا الوزن باسم المفعول. وفي الهمع ما يفيد أنه جاء شاذاً من أوزان الآلة، كآراث لما تؤرث به النار، أي تضرم به، وسراد لما يسرد به، أي يحز به. ولما سمع ﷺ قوله: «وعند الله في ذلك الجزاء» قال: جزاك الله الجنة بإحسان. ولما سمع قوله: «فإن أبي» قال: وقاك الله حر النار يا حسان. وتقريره ﷺ على المكافأة بالدم، يدل على الجواز.

ينظر: ديوانه ص ٧٥، ولسان العرب: (جوف)، (هوا)، وكتاب العين ١٠٤/٤، وتهذيب اللغة ٦/٤٩٢، ٢٠٩/١١، وأساس البلاغة ص ٧٠ (جوف)، وتاج العروس (برج)، (جوف)، والمخصص ١٢٠/١٥، وديوان الأدب: ١٣٨/٣.

شديداً وأملوا بعيداً، ﴿وَمَا لَكُمْ﴾: جواب القسم؛ وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: (أقسمتم)، ولو حكى لفظ المقسمين ل قيل: مالنا، ﴿مِنْ زَوَالٍ﴾، والمعنى: أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون إلى دار أخرى يعني: كفرهم بالبعث؛ كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ [النحل: ٣٨]، يقال: سكن الدار وسكن فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]؛ لأن السكنى من السكون الذي هو اللبث، والأصل: تعذيبه بقي؛ كقولك: قر في الدار وغني فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوأها وأوطنها، ويجوز أن يكون: سكنوا^(١)، من السكون، أي: قرؤا فيها واطمأنوا طيبي النفوس، سائر سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدثونها بما لقي الأولون من أيام الله، وكيف كان عاقبة ظلمهم، فيعتبروا ويرتدعوا، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾: بالإخبار والمشاهدة، ﴿كَيْفَ﴾: أهلكتناهم وانتقمنا منهم، وقرئ: «ونبين لكم»: بالنون، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ أي: صفات ما فعلوا، وما فعل بهم، وهي في الغزاة كالأمثال المضروبة لكل ظالم، ﴿وَقَدْ مَكْرُوهًا مَكْرَهُمْ﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم، ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ﴾: لا يخلو إما أن يكون مضافاً إلى الفاعل كالأول، على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكرهم هو أعظم منه، أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى: وعند الله مكرهم الذي يمكرهم^(٢) به، وهو عذابهم^(٣) الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون، ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة، فضرب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدته، أي: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال، معداً لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم، على أن الجبال مثل آيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثابتاً وتمكناً؛ وتنصره قراءة ابن مسعود: «وما كان مكرهم»، وقرئ: «لتزول»: بلام الابتداء، على: وإن كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع

(١) قوله: «ويجوز أن يكون سكنوا» لعله: سكتتم. (ع)

(٢) قوله: «وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به» الذي في الصحاح المكر: الاحتيال والخديعة، وقد مكر به. والمكر أيضاً: المغفرة، وقد مكره فامتكر، أي خضبه فاخضب اه، وهو يفيد أن المكر بمعنى الاحتيال لا يتعدى بنفسه، فتدير (ع).

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا لا يصح إلا إن كان «مكر» يتعدى بنفسه، كما قال هو إذ قدّر: يمكرهم به. والمحفوظ أن «مكر» لا يتعدى إلى مفعول به بنفسه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وتقول: «زيد ممكور به» ولا يحفظ «زيد ممكور بسبب كذا». انتهى. الدر المصون.

من أماكنها، وقرأ علي وعمر - رضي الله عنهما - : وإن كاد مكرهم، ﴿مُخَلَّفَ وَعَدَهُ رُسُلَهُ﴾ يعني: قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلُنَا﴾ [المجادلة: ٥١].

فإن قلت: هلا قيل: مخلف رسله وعده؟ ولم قدم المفعول الثاني على الأول^(١)؟

قلت: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً؛ كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ أَلِيمًا﴾ [الرعد: ٣١]، ثم قال: (رسله): ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً - وليس من شأنه إخلاف المواعيد - كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته؟ وقرئ: «مخلف وعده رسله»: بجزر الرسل، ونصب الوعد، وهذه في الضعف كمن قرأ: ﴿قتل أولادهم وشركائهم﴾ [الأنعام: ١٣٧]. ﴿عَزِيزٌ﴾: غالب لا يماكر، ﴿ذُو أُنْفِقَارٍ﴾: لأوليائه من أعدائه.

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فِطْرَانٍ وَتَقَشَّى وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ﴾: انتصابه على البدل من يوم يأتيهم، أو على الظرف للانتقام، والمعنى: يوم تبدل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة؛ وكذلك السموات، والتبديل: التغيير، وقد يكون في الذوات؛ كقولك: بدلت الدراهم دنانير، ومنه: ﴿بَدَلْتَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، و﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَبَشَتِهِمُ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦] وفي الأوصاف؛ كقولك: بدلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وسويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقيل: تبدل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها، وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت، وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تغير؛ وأنشد [من الطويل]:

(١) قال محمود: «إن قلت لم قدم المفعول الثاني على الأول... إلخ؟» قال أحمد: وفيما قاله نظر؛ لأن الفعل متى تقيد بمفعول انقطع إطلاقه، فليس تقديم الوعد في الآية دليلاً على إطلاق الفعل باعتبار الموعود، حتى يكون ذكر الرسل بائناً كالأجنبي من الإطلاق الأول، ولا فرق في المعنى الذي ذكره بين تقديم ذكر الرسل وتأخيرها ولا يفيد تقديم المفعول الثاني إلا الإيدان بالعمانية في مقصود المتكلم والأمر بهذه المثابة في الآية، لأنها وردت في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله تعالى به على السنة الرسل، فالمهم في التهديد ذكر الوعيد. وأما كونه على السنة الرسل فذلك أمر لا يقف التخويف عليه ولا بد، حتى لو فرض التوعد من الله تعالى على غير لسان رسول، لكان الخوف منه حسيباً كافياً، والله أعلم.

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَاهَدْتَهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْلَمُ^(١)

وتبدل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً، وقيل: يخلق بدلها أرض وسموات أخرى، وعن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة، وعن علي - رضي الله عنه -: تبدل أرضاً من فضة، وسموات من ذهب، وعن الضحاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف، وقرئ: «يوم تبدل الأرض» بالنون^(٢).

فإن قلت: كيف قال: ﴿الْوَيْدُ الْقَهَّارُ﴾؟

قلت: هو كقوله: ﴿لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَيْدُ الْقَهَّارُ﴾ [غافر: ١٦]؛ لأن الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعاز فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار، كان الأمر في غاية الصعوبة والشدة، ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: قرن بعضهم مع بعض، أو مع الشياطين، أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين، وقوله: ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾: إما أن يتعلق بمقرنين، أي: يقرون في الأصفاد، وإما أن لا يتعلق به، فيكون المعنى: مقرنين مصفدين، والأصفاد: القيود، وقيل: الأغلال؛ / ١٨٦ وأنشد لسلامة بن جندل [من الوافر]:

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لَاقَى صِفَاداً يَعْضُ بِسَاعِدٍ وَيَعْظُمُ سَاقٍ^(٣)

القطران: فيه ثلاثة لغات: قَطْرَان، وَقَطْرَان، وَقَطْرَان: بفتح القاف وكسرهما مع سكون الطاء، وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ، فتهدأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحرّه وحدثه، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرح به، وهو أسود اللون متنن الرياح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل وهي القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران، وحررقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، وشنن الرياح، على أن التفاوت بين القطرانيين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو وعده في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسمي والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع

(١) يقول: ليس الناس اليوم هم الناس الذين عاهدتهم سابقاً، لفناء الأحياء من بينهم، وليست الدار اليوم هي الدار التي كنت تعلمها، لتبدل أحوالها وتغير أوصافها.

ينظر: مجالس ثعلب (٤٩/١)، روح المعاني (٢٥٤/١٣)، الدر المصون (٢٨١/٤).

(٢) قوله: «وقرئ تبدل الأرض بالنون» لعله ونصب الأرض والسموات، فلتحرر القراءة (ع).

(٣) لسلامة بن جندل. وزيد الخيل: هو الذي سماه النبي ﷺ زيد الخير. قد لاقى: أي نال من أعدائه صفاداً، أي قيداً وغلا. واستعار العض لقرص الصفاد اليابس الصلب على طريق التصريحية. والباء للإلصاق، وأفحم لفظ العظم للمبالغة في العض حتى وصل العظم.

نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه، وقرئ: «من قطران»، والقطر: النحاس أو الصفر المذاب، «والآني»: المتناهي حزه، ﴿وَتَشْنَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّبِعِ بَوَّابَهُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤]، ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]؛ لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه، كالقلب في باطنه؛ ولذلك قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِيدَةِ﴾ [القمر: ٧]، وقرئ: «وتغشى وجوههم»: بمعنى: تتغشى، أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل، ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾: مجرمة، ﴿مَا كَسَبَتْ﴾: أو كل نفس من مجرمة ومطبعة؛ لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٥٦)

﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾: كفاية في التذكير والموعظة، يعني: بهذا ما وصفه من قوله: (ولا تحسبن) إلى قوله: (سريع الحساب)، ﴿وَلِيُنذَرُوا﴾: معطوف على محذوف، أي: لينصحووا ولينذروا، ﴿به﴾: بهذا البلاغ، وقرئ: «ولينذروا»: بفتح الياء: من نذر به إذا علمه^(١) واستعدله، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾؛ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به، دعوتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأن الخشية أم الخير كله.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ كُلِّ مَنْ عَبَدَ الْأَصْنَامَ وَعَدَدَ مَنْ لَمْ يَعْبُدْ» (٨١٤).

٨١٤ - تقدم تخريجه وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة، وقد تكلمنا عليه وعلى أسانيده عند الحديث رقم (٣٤٦).

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
يأتي تخريجه في آخر الكتاب. انتهى.

(١) قوله: «من نذر به إذا علمه» في الصحاح: نذر القوم بالعدو - بكسر الذال - إذا علموا (ع).